الملازم الأول مصطفى رابينوفيتش

آشِر كرافيتس(*)

دار يديعوت أحرونوت، 2008، الطبعة الثانية. 253 صفحة.

هذا الكتاب المعروض في قائمة كتب للبيع في مكتبة "ستيماتسكي" في حيفا، لا يلفت النظر من اللحظة الأولى. في البداية، لم أتوقف عنده حين كنت أتجول سريعاً أمام تلك الرفوف، لكن عنوان الكتاب هو الذي لفتني، فتوقفت وقرأت: "الملازم الأول: مصطفى رابينوفيتش". جذبني العنوان وغرابة الاسم. إنها لمفارقة أن يحتوي اسم ملازم في الجيش الإسرائيلي كلمة عربية هي "مصطفى" إلى جانب اسم العائلة العبري من أصل أشكنازي: "رابينوفيتش". وتساءلت: هل هذا خطأ مطبعي؟ ورحت أسأل نفسي: ما الأمر؟!! ما قصة هذا الكتاب؟! ومن هو الكاتب؟

كانت هذه التساؤلات كافية لآخذ الكتاب بين يدي وأقلبه سريعاً في محاولة عجلى لاستكشاف السر والبحث عن إجابات. وتأتي الإجابة على صفحة الغلاف الخلفي: "أنا هو الرجل من خلف القبضة. المفصل الأوسط من أصبع يدي اليمنى يقرر مصائر. اسمي يائير رابينوفيتش. وفي جميع الأحوال هذا هو اسمي الأصلي. والآن أُلصق بي لقب مصطفى. أنا الملازم الأول مصطفى رابينوفيتش." الملازم الأول يائير رابينوفيتش، الملقب مصطفى، هو قناص في وحدة المستعربين "كرز" (دوفدوفان)، وهي وحدة مشاة عسكرية مختارة وتطوعية تعمل في الضفة الغربية وتتبع قيادة المركز في الجيش الإسرائيلي، ومهمتها الأساسية إيقاف من تسميهم بقاموسها "المطلوبين" في مناطق تعتبرها "معادية". أغلبية مهماتها يقوم بها مستعربون يتخفون بزي عربي.

يقول الراوي يائير رابينوفيتش: "سأمضي حياتي على وجه هذا الكوكب الملعون من دون أن أقتل."

يوصي عامي أيالون، رئيس سابق لجهاز الأمن العام ("الشاباك")، جمهور القراء بقراءة هذا الكتاب بمن فيهم أولئك البعيدون عن أي صلة مباشرة بـ "التخبط الأخلاقي الذي يرافق جنوداً يخدمون عبر الخط الأخضر"، ويؤكد لهم أن هذا "التخبط يعرض من زاوية صحيحة بشكل خاص"، ويضيف أن "هذا الكتاب مهم لأنه يعرض بصورة صادقة وحقيقية وإنسانية، ما يمر به محارب خدم في وحدة المستعربين." ويؤكد أنه وجد نفسه، في أثناء قراءة الكتاب، يتعاطف مع البطل في عدة مقاطع، وخصوصاً في رحلته المجنونة نوعاً ما إلى نابلس والتي تشكل في رأيه "رغبة دفينة لكل جندي حربي واجه أوضاعاً مشابهة."

استفزتني ولفتتني هذه الملاحظات، وقلت: قناص إسرائيلي في وحدة المستعربين الناشطة خلف "الخط الأخضر"، ثم "تخبط أخلاقي"؟! كيف يمكن أن تكون الحال عليه؟ هل هو التخبط الأخلاقي نفسه الذي يتحدث عنه أفيف غيفن في أغنيته "يقتلون ويبكون" (يوريم فِبُوخيم)؟ كيف يمكن أن يجمع شخص مثل الراوي نقيضين أخلاقيين في آن – كيف يمكن أن يقطع على نفسه عهداً بأن "يمضي بقية أيامه على هذا الكوكب الملعون من دون أن يَقتل" ويتجند في المقابل في وحدة المستعربين!! وتساءلت: لماذا اختار الكاتب أن يكشف على لسان الراوي عن هذه المضامين، وأن يشركنا في قراءتها؟ لماذا كتب هذا الكتاب؟

وقررت أن أعطي مخاوفي وشكوكي استراحة حتى الانتهاء من قراءة الكتاب، علها تجد لها إجابات خلال هذه الفترة.

يستهل الكاتب روايته بإهداء يوجهه إلى "الأصدقاء" من الـ "بَلسار"، وهو الاسم العام الذي يطلق على الوحدة البرية المتجولة المتخصصة بالاستكشاف والمراقبة والتوجيه وتجميع المعلومات، حين اشترك، خلال خدمته في هذه الوحدة، في تفصيلات الأحداث التي مرت به، ولا سيما في العمليات التي شارك فيها. ويتحدث عن أساليب العمل في هذه الوحدة، ويستحضر جميع ما يعتريه من مشاعر وأفكار تولدت من النقاشات التي كانت تدور بينه وبين أفراد وحدته: رؤسائه، عائلته، أصدقائه، وآخرين التقاهم في أماكن متعددة، والتي تكشف تناقضات أخلاقية عاشها كمحارب، وتكشف أيضاً ما كان يدور في رأس محارب ينتمي إلى وحدة كهذه، وبعض أفكار الإسرائيلي العادي

وما يشغل تفكيره.

تبدأ الرواية بسرد تفصيلات محاولة قنص شريف محمود غزالي أحد القياديين الفلسطينيين، والمعروف، بناء على التعليمات التي وصلتهم، بأنه "الأشهر في تدريب شبان على إجراء تفجيرات في أماكن مكتظة بالناس." القناص هو الراوي نفسه الذي يختبئ فوق سطح أحد البيوت الفلسطينية، ويساعده في ذلك زميله أمير الملقب في وحدته باسم حافظ.

إن الأحداث وتفصيلات عمليات القتل تُعرض في هذا الكتاب كأنها أمور عادية جداً ويومية لا تستدعي التوقف عندها كثيراً، عدا تلك اللحظات التي يتوقف فيها الراوي ليكشف عن مشاعره وأفكاره.

يعيش الراوي هاجساً يرافقه طوال الفترة التي يغطيها الكتاب. فقد كان أخذ على نفسه عهداً بأن يمضي حياته من دون أن يَقتُل، من منطلق "أن الإنسان خُلق على شاكلة الله وصورته." ويضيف أنه "في المبدأ لا يبدو الأمر بهذه الصعوبة"، وأن "من السهل على أغلبية الناس أن تفي بهذا الوعد"، إلاّ هو، لأنه قناص في هذه الوحدة. هذه هي الحبكة التي يدور عليها الكتاب: كيف يمكن أن يقطع إنسان على نفسه عهداً كهذا: ألاّ يقتل، وأن يختار طوعاً، وعن وعي أيضاً، أن ينضم إلى وحدة عسكرية، وليست أي وحدة، وإنما وحدة المستعربين!! الشك في إمكان الإيفاء بهذا الوعد، يشد القارئ لإكمال الكتاب كي يفهم كيف يتعامل الراوي القناص المستعرب مع هذه المعضلة الأخلاقية؟! ويأتي الجواب من خلال سرد وقائع مزيد من العمليات.

يتنقل الراوي بين محورين يتداخلان ويتشابكان في حياته: الأول، علاقاته العاطفية بفتاتين: الأولى، عابرة وسريعة بممرضة تعرف إليها خلال وجوده في المشفى بعد إصابته؛ الثانية، بمجندة بدأت بينهما علاقة حميمة استمرت أشهراً وانتهت عندما اكتشف، مصادفة، أنها بدأت علاقة بمجند آخر خلال علاقتها به. حدث ذلك بعد أن تعرض الراوي نفسه لإصابة تركت في جسده إعاقة منعته من الاستمرار في عمله كقناص. تمثل هاتان الفتاتان قطبين فكريين في المجتمع الإسرائيلي: الممرضة تنتمي إلى تيار المتدينين المحافظين، والمجندة إلى مجموعات اليسار، أي أنها فتاة متحررة اجتماعياً، وناشطة في مجال الدفاع عن حقوق الحيوان.

المحور الثاني والمركزي في الرواية، يتعلق بخدمته العسكرية في الوحدة، وهو يشرك القارئ في تفصيلات تبرهن كيف أن استقلاليته الفكرية واتخاذه قرارات مستقلة أوصلاه إلى المحاكمة العسكرية، وكيف أن الجهاز العسكري لا يحتمل أي مبادرات فردية، وأن ما يُطلب من الأفراد هو الطاعة العمياء وتنفيذ الأوامر، وأن أي حياد عن ذلك يعتبر خللاً ربما يؤدي بالفرد إلى تحويله إلى الفحص النفسي العسكري. وتُظهر النقاشات التي يستحضرها الكاتب، التوتر والتنافس والصراع بشأن إدارة الأمور واتخاذ القرارات بين وحدة المستعربين التي تعتبر نفسها وحدة مميزة ومنتقاة من جهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك) الذي يتعامل مع الوحدة كذراع تنفيذية له وليس كشريك في اتخاذ القرارات.

تأثر الراوي بقضيتين تركتا أثراً في قراراته: الأولى، هي نقاش مع جريح إسرائيلي أصيب في عملية تفجيرية، وكان معه في الغرفة نفسها في المشفى، إذ يقول له هذا منتقداً عمله: "أنتم شبان عقلكم مدفون في مؤخرتكم... أنتم لا تفقهون شيئاً. لا يوجد لديكم أي نوع من الفهم لحقيقة ما تفعلون. حاول ولو لمرة واحدة رؤية الأمور من الجانب الفلسطيني.." تطارده هذه الجملة وتدفعه إلى القيام بجولة شخصية في نابلس من دون علم أحد من أصدقائه في الوحدة أو مرؤوسيه. جولة تترك أثرها فيه. وكانت هذه الجولة ملأى بالأحداث، واحتلت جزءاً كبيراً من صفحات الكتاب. فخلال تجواله في منطقة القصبة في مدينة نابلس يتعرض المستعرب للملاحقة بعد أن يشك بعض السكان في أمره، فيهرب راكضاً ويشاهد في طريقه عملية إعدام أحد العملاء فتزداد مخاوفه، ثم يواجه فترة منع التجول فيلجأ إلى أحد البيوت الفلسطينية طالباً المساعدة فتؤويه حتى الصباح عائلة لاعتقادها أنه فلسطيني محتاج، ويعامل أفضل معاملة. يستحضر المستعرب – بشكل تقريري ومن دون التطرق إلى المشاعر – الأحوال الصعبة والقاسية واللاإنسانية التي تعيشها العائلة مع طفلة مقعدة.

بعد أن يترك المستعرب البيت وهو ما زال في الزي الفلسطيني توقفه دورية جنود إسرائيلية وتطلب منه إبراز هويته، فيقرر، كي لا يفضح نفسه أمام الفلسطينيين و"يحرق أوراقه" كمستعرب، أن يقول أنه لا يحمل هوية. فيتم نقله إلى خيمة تضم معتقلين فلسطينيين، وهناك يكاد أمره يُكشف مرة ثانية على يد أحد المعتقلين الفلسطينيين الذي يشك في أمره ويظن أنه من "العصافير" (العملاء)، لأنه رفض الإجابة عن أسئلة الشاب الفلسطيني. ويقول

أنه فعل ذلك كي لا تفضحه لهجته التي سيعرفون أنها ليست عربية أصلية. ويشير إلى أن اللهجة هي نقطة ضعف المستعربين بصورة عامة الذين يقللون من الكلام أو يلجأون إلى الصراخ في أثناء التظاهرات فتضيع أصواتهم بين الجمهور. وتنتهي هذه الحادثة على الرغم من مخاوفه، من دون أن يُكتشف أمره.

يتطرق الكتاب في كثير من المواضع إلى التدريبات الخاصة التي تقوم بها وحدات المستعربين وتشمل ثلاثة بنود أساسية، هي: الجهوزية الحربية (الركض وتمارين إطلاق النار)؛ ملكة اللغة العربية (دروس بإشراف ضباط ومعلمين مختصين)؛ اكتساب المعرفة عن العدو (برنامج كومبيوتر خاص يزودهم بمعلومات عن المنظمات الفلسطينية؛ خريطة الضفة وغزة؛ معرفة وجوه "المطلوبين"...). كما يُطلب من هذه الوحدات تخصيص ساعة يومية على الأقل لكل واحد من هذه البنود الثلاثة.

ويشير إلى أنه قبل البدء بالمهمات الحقيقية يتم إسناد مهمات التدرب على الشخصية التي تقمصوها. هو "مصطفى"، وقد اختار شخصية رجل مسن أعرج، وكان عليه أن يتدرب على المشية واللهجة، وعلى الاختلاط بالفلسطينيين كالوصول إلى السوق، وعلى التجول وشراء بعض الخضار. بعد ذلك يتم تقويم العمل مع المسؤولين الذين راقبوا مسار التمرين، والبحث عن الأخطاء لمنع تكرارها.

ويتم التدريب في "نماذج القرى" التي بنيت على تلال خصصت لذلك الهدف، وهي تشبه كثيراً القرى الفلسطينية الحقيقية، وفي داخلها نماذج بيوت تحوي "أصناماً بشرية" لمطلوبين. وتُبنى هذه القرى بالتنسيق مع طواقم إضافية، كوحدات هندسة ومشغلي الأجهزة التابعين للجيش. ويتم التدريب على المرور بين الأزقة والبيوت الفلسطينية في وضعية إطلاق نار، على الشكل التالي: يصنع أفراد الجيش حفرة في الجدار، ويلقون بقنبلة إلى الداخل، ثم يطلقون النار على مَن في داخل البيت. ويقوم أخصائيو الهندسة بدخوله للتأكد من أن الغرفة خالية من الألغام، وبعد ذلك يقتحم أفراد وحدة المستعربين الغرفة بهدف "إصابة مَن يجب إصابته.. ويطلقون وابلاً من الرصاص على طول الغرفة وعرضها بهدف تطهيرها" (ص 229)، بينما تبقى الوحدات المساعدة في الخلف. مثل هذا التمرين يتم دوماً قبل كل عملية حقيقية. لاحظوا هنا المصطلحات التي تستعملها هذه الوحدات كمصطلح الـ "تطهير" أو "إصابة مَن يجب إصابته"، التي تدل على توجهاتهم وأهدافهم ورؤيتهم للفلسطينيين كأهداف لاإنسانية يجب القضاء عليها.

ويكشف الراوي أيضاً عن أساليب عمل إضافية كالاعتماد على "المتعاونين" – وفقاً للقاموس الفلسطيني، فإن المقصودين هنا هم الخونة من فلسطينيين يساعدون الجيش الإسرائيلي ضد أبناء شعبهم – للكشف عن "المطلوبين"، والذين يدخلون معهم البيوت في كثير من العمليات وهم مقنّعون، فيدلّون بيدهم على الشخص المطلوب ممتنعين من الكلام كي لا يتم التعرف إليهم.

ويبين الراوي كيف أنهم بهدف الوصول إلى طلاب جامعيين مطلوبين وكسب ثقتهم قبل اعتقالهم، ينخرط أعضاء الوحدة بين المتظاهرين ويهتفون ويحرضون بحرارة ضد اليهود ويحملون الرايات ويرتدون "لباساً ملائماً". علاوة على ذلك، يتم إقامة حواجز جانبية قبل العمليات من أجل تسهيل عملهم وإعاقة حركة الفلسطينيين، كما أن قوة إنقاذ من حرس الحدود ترابط قرب البلدة للتدخل إذا ما تعقدت العملية.

ومن أساليب التمويه الإضافية التي يستعملها أفراد وحدات المستعربين، كما يستدل من الكتاب: الوقوف في الصف بزي فلسطيني أمام الحواجز العسكرية وقيامهم بالدور كاملاً، فيقدّمون هوياتهم البنية إلى جنود حرس الحدود الذين لديهم تعليمات واضحة بألاّ يتعاملوا معهم بلطف كي لا يوقعوا بهم، وإنما إظهار لذة في توجيه الإهانة إليهم على أنهم فلسطينيون، شتماً، وأحياناً ضرباً، أو ركلاً لسيارتهم، وذلك من أجل أن يكسبوا ثقة الفلسطينيين بأنهم منهم؛ وهناك أسلوب استعمال لوحة أرقام لسيارة فلسطينية، لكنهم ما إن يعبروا الحاجز حتى يقوموا بإزالتها؛ ومن أساليب التمويه أيضاً لبس ثياب بسيطة، ثم رش بعض الماء على اليدين والوجه والثياب والرجلين ليضفوا على أنفسهم مظهر عمّال بناء مغبرين بغبار الأرض بعد يوم عمل صعب.

علاوة على ذلك، يتحدث الراوي المستعرب عن الثمن الباهظ للأخطاء التقنية التي تواجههم في عملهم أحياناً، فاضحاً بذلك بعض الحوادث وأساليب العمل. فجرّاء خطأ في التشخيص قتلوا مرة بائع خضار يهودياً معتقدين أنه "الفلسطيني المطلوب". وفي حادثة أُخرى قبضوا على شخص أشبعوه ضرباً وبعد أن تبين لهم الخطأ في التشخيص حملوه

لتلقي العلاج، لكن جهاز الأمن العام اكتشف مصادفة أنه مطلوب آخر كانوا يبحثون عنه منذ مدة طويلة، وتم تجيير العملية لمصلحتهم كأنهم كانوا على علم بما يقومون به، وهنا، وقف الحظ إلى جانبهم في هذه الحادثة. لكن في حادثة أُخرى، وبسبب "خطأ إنساني" في أحد التمارين العسكرية، فجّر صديقه العزيز نفسه بأحد تمارين اقتحام بيت فلسطيني، وكان لهذه الحادثة الأثر الكبير في الراوي.

ويبين الراوي أن أعضاء هذه الوحدة هم على أهبة الاستعداد دائماً ولا يعرفون متى تصدر الأوامر إليهم، وعليهم أن يستجيبوا فوراً. ويذكر تفصيلات بعض العمليات التي قامت بها وحدته، كتنفيذ عمليات "تصفية" أو اعتقال، ويذكر حادثة اختطاف صالح النظمي من وحدة الاستعلامات التابعة لحزب الله، والذي وصلتهم معلومات عن وجوده في قلقيلية، كما يدّعي.

جميع تلك العمليات التي قُتل فيها الراوي فلسطينيين أو جرى اعتقالهم بمساعدته ومساعدة أفراد وحدته، لم يعرضها على أنها إيفاء بالنذر الذي قطعه على نفسه "ألاّ يَقتل"، إلاّ إن إخلاله بالنذر، بحسب قوله، حدث عندما شارك في عملية القضاء على "ناظمة استقلال، وهي أم لثلاثة أولاد، وصلت معلومات بأنها ستفجر نفسها في محطة الباص في العفولة. بحثوا عنها في بيتها فلم يجدوها. وبينما هم – أفراد الوحدة – في حيرتهم، ميزها [الراوي] من موقعه تتقدم نحوهم من دون أن يلحظوها، ولم يكن قادراً على تنبيه رفاقه باللاسلكي لأن الشبكة كانت مغلقة بحسب الأوامر لتلك الساعة." ويقول الراوي إنه "لم يكن هناك من مفرّ إلاّ أن يفجرها كي يحمي أصدقاءه." وهكذا فعل و"أطلق النار في اتجاه الحزام الناسف المربوط على وسطها." ويضيف قائلاً: "أعلم أني منعت مصيبة كبيرة، لكني خالفت قسمي.. سكنت في جسدي الآن روحان: روح منقذ، وروح قاتل" (ص 225).

هذه هي الذروة، وقد أكد رابينوفيتش بذلك أنه من غير الممكن أن يكون مقاتلاً في وحدة مستعربين من دون أن يكون قاتلاً.

يصل الراوي في نهاية الكتاب إلى جملة أحداث أثرت فيه مصيرياً: فقدانه صديقه؛ إصابته البليغة التي منعته من الاستمرار في مزاولة عمله في الوحدة؛ اكتشاف خيانة صديقته له. هذه الأمور كلها دفعته إلى العودة إلى البيت بحثاً عن الراحة النفسية.

وينتهي الكتاب بالنقطة التي تدل على أنه يعيش حالة ضياع وخلط بين الشخصية المتقمصة، مصطفى "المستعرب"، وبين كونه يائير رابينوفيتش اليهودي. فهو يعيش الشخصيتين من منطلق إسرائيلي، وبشكل ما عاد في إمكانه الفصل بين حدودهما، كما يبدو. ويظهر هذا الأمر جلياً في تصرفاته وفي حديثه عن نفسه. فالتعليمات تقول إن عليه، هو وأصدقائه في الوحدة، أن يتقمصوا تكتيكياً، وطوال الوقت، الشخصية المستعربة التي يجسدونها: عليه أن يكون مصطفى، وعلى أصدقائه أن ينادوه كذلك، في كل وقت، حتى خارج الوحدة وخارج نطاق العمل، بل حتى في ساعات الفراغ. وذلك ليس تماثلاً مع الفلسطيني كما يتضح، وإنما حماية لأنفسهم وكي لا يزل لسانهم بالخطأ فيقعوا بين يدَي "العدو" ويوقعوا معهم أصحابهم في الوحدة. هذا الأمر يدخله في حالة من ازدواجية الذات أحياناً: يشعر، عندما يكون في هذه الحالة، بأنه مصطفى ويتعاطف مع معاناته، لكنه في الوقت نفسه مقتنع بضرورة قتله. في هذه النقطة من التخبط والالتباس تنتهي الرواية بكلمات يقولها عن نفسه: "اليدان يدا مصطفى والصوت صوت رابينوفيتش. أنا حاضر وغير موجود. أنا أحتل حيزاً ضيقاً."

جنان عبده
كاتبة فلسطينية
(حيفا)

(*) آشِر كرافيتس روائي إسرائيلي مولود في القدس سنة 1969، عمل سابقاً في الشرطة، وفي "الوحدة الدولية الخاصة بالتحقيق في الجرائم الصعبة". وهذه الرواية هي الثالثة له بعد "مربع السحر" (2002)، و"بوميرانغ" (2003). وله أيضاً "الكلب اليهودي"، و"كالمان كيمرلنغ: محقق خاص بإذن الله". ورواية "الملازم الأول مصطفى رابينوفيتش" صدرت أول مرة بعنوان "أنا مصطفى رابينوفيتش" عن دار هَكيبوتس هَميؤحاد" (الكيبوتس الموحد) سنة 2005، وتروي على لسان يائير رابينوفيتش الملقب بـ "مصطفى" وقائع من خدمته العسكرية في الضفة الغربية وعمله قناصاً في وحدة "دوفدوفان"، أي "كرز".